# من تحت طيَّات الوحل... أُناديكم

لستُ أدري من أين أبدأ؟ لقد قُضي الأمر.. وأُغلقت النافذة.. للأبد.. سيحين الوقت لأقصّ عليهما ما فعلت منذ لحظات.. إنهما قادمان إليَّ لا مناص ولا وقت للتحايل.. ولا قدرة على الاختلاق.. فالعضو فم والعقل راهب.. والجسد جثة!!.. والكل ناطق..

أين أذهب؟... أين أذهب وبيتي ظلمة... وقُرنائي جيفة... قُرآن يُتلى.. ماء يُسكب.. نحيب يسخر وفجر يبزغ... وشمعة تطفأ وفجر يبزغ.. أقسم أنها كانت ساعة..

وكنت أقول: أنزلوني بالله عليكم.. لما تهرول خطاياكم؟... آه لو ترون ما أرى.. لو تسمعون ما أسمع.. لاختلف الأمر كثيراً...

الوقت يمر... أو لا يمر.. وما الفرق... الفرق دنيا... وما أدراك ما الدنيا؟ الدنيا ساعة فلتكن طاعة!!

ماذا أقول لهما؟ والقول مسطور... واللسان مأمور... كنت أظن أني مجبور... هل من كرةٍ أخرى؟... رب

ارجعون... ارجعون... لعلي أعمل صالحاً فيما تركت... هيهات... هيهات لما توعدون لقد غيض الماء وقُضي الأمر... والتقت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق وما أدراك ما هو؟

لقد كان المؤذن يؤذن ليشير إلى منبع النهر... ألم ينهرني حين اشتعل الرأسُ شيباً... ألم يزجرني حين انحنى الظهر ووهن العظم مني... ألم يوقظني من غفلتي حين أراني فلاناً سئيماً... والآن أقول: يا ليتني لم أتخذه خليلاً... تباً له... بل تباً لي... لقد تبرأ مني الآن مثلما فعل الآخرون...

ليتني أرجع أعمل صالحاً فيما تركت... بل ليتني كنت تراباً... ولكنني كنت... وأين أنا الآن... ها... في التراب... وهل إلى خروجٍ من سبيل...؟

يا إلهي... إنهما قادمان... إن دوري بعده... ذلك الجسد المسُجّى إلى جواري... لقد جاء قبلي بلحظات... في موكب ضخم... هكذا قال لي... لقد ودعه كبار رجال الدولة... كبار.. ها... إني أتذكره... عندما طالبته ببعضٍ مما أنعم الله عليه... فأبى واستكبر... كانت زوجتي مريضة... وكنت أنا في أتم صحتي... تنقصني بعض الوريقات... لأداويها عند الطبيب المشهور... إنها الآن حية

ترزق بمفهوم الأحياء... وأنا حي أحاسب بمفهوم الأموات... إنها حية لا بتلك الوريقات اللعينة... ولا بدواء الطبيب... ولكن بإرادة الحي القيوم... فأمره بين الكاف والنون.

الآن أنا وصديقي المسجى بجواري كأسنان المشط... لقد عاث في الأرض فساداً... ولقد حان الوقت لتأخذ الأرض بثأرها منه...

لقد بدأ يصرخ ويتلوى... ثم يجهش في البكاء... لو سالت منه عبرة ساخنة في الدنيا خوفاً من حاله هذا لما كان هذا هو حاله الآن... ألم ثم صراخ ثم نحيب ثم ألم...

من الآن فصاعداً لن أستطيع أن أسرد باقي المشاهد، لأنهما فرغا منه.. لقد استدارا إليَّ... وبدءا يقتربان... لا أس... أستطيع أن أتفوه الآن بكلمة واح... كلا؟!..

* * *

الظلام وحدة... والبيت حجرة... والعدل عدل... سبقه الرحمة... أخيراً استعدت أنفاسي... وسأقص عليكم... لأنكم بنا لاحقون... فهل لازلتم تسمعونني؟ أم لا حياة لمن أنادي... أم هل سبقتني الشمس فكُشطت... والموءودة

فسُئلت... والأرض فأخرجت أثقالها وما أدراك ما أثقالها... لم يحدث حتى الآن؟... إذاً فانتهزوا الفرصة وعضوا عليها بالنواجذ...

وسأقص عليكم... لقد جاءاني... منكر ونكير... أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنيابهما كالصياصي وأنفاسهما كاللهب... سألاني... وأنطقني الله الذي أنطق كل شيء... ومن يطيق الكلام في مثل ذلك الموقف الرهيب الذي تخر له الجبال هداً ويشتعل رأس الولدان فيه شيباً... إلا من رحم ربي...

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: 27].

لقد أجلساني فوقع حلقي في بطني... ثم بدءا: مَن ربك؟... ما دينك... ومَن نبيك...؟

وفجأة انقشع الظلام... وسادت السكينة وهدأت بعض الشيء... تسألونني عن السبب.. أقول لكم هو بأمر مالك الأسباب...

مجرد وافد جديد... ولكنه مميز... إنه ليس مثلي... ولا

مثل صديقي المسكين المسجى إنه أرقى من ذلك.. أرقى وأسمى بكثير... تركه أهله وولوا وبقي عمله... وعمله نور... ونوره برهان... ولا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمٰن ورضي له قولاً.

لباسه حرير... خُضرٍ كعبقري حِسان... بيض كاللؤلؤ المكنون... تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام...

لا تتركني أرجوك فأنت أنيسي... بعد الوحدة...

ونُفخ في الصور.. وصُمَّت الآذان... وتبدل الموقف وسأقص عليكم... فللقصة بقية... وما كانت هذه إلا البداية...

والبداية جسر... والجسر صراط... تحته النار... وأمامه الجنة... وسأقص عليكم لو أذن لي ربي...